بقلم الاب فليكس تريسيرا الاسباني

ظهر في مدريد ، السنة الفائتة ، كتاب مهمّ عن محيي الدين ابن العربي ، كبير صوفيي الاندلس ومن اكابر صوفيي العالم الاسلامي على الاطلاق . واذا قلنا ان مؤلف الكتاب هو ميكال أسين بلاسيوس[1] المستشرق الاسباني الشهير ، المعروف ابحاثه في هذا الموضوع ، نكون قد حددنا نوعاً ما قيمة هذا الكتاب واشرنا الى المركز الذي يحلّه في ابحاث المستشرقين عن صوفية الاسلام.

اما غاية المؤلف الظاهرة في عنوان الكتاب فان يدرس مظاهر الصوفية من خلال آثار ابن العربي، فيشير فيها الى تأثير النصرانية في هذه الحركة الروحانية. وهو يتتبع حياة ابن العربي المنقضية بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، في بلاد الاسلام المختلفة كالاندلس وافريقية والمشرق . ويدرس عقيدته الزهدية الصوفية ، محلّلاً عناصرها الخاصة ، تلك العناصر التي تجعل منها مثالاً نوعياً تتمثّل فيه الروحانية الاسلامية بكامل مظاهرها النظرية والعملية المشتركة بين جميع الامكنة والازمنة. فيمكن اذاً ان يطّلع الباحث في روحانية ابن العربي على تلك الطرق المتنوّعة والآراء والعقائد الخاصة التي تميّز الروحانية الاسلامية على الجملة، فيدرس ما فيها من صلات بالنصرانية ، وما في مظاهرها من شبه بمظاهر

1) Miguel Asin Palacios, El Islam cristianizado, *Estudio del « Sufismo » a través de las Obras de Abenarabi de Murcia. gr. in-8° de 543 pp. Editorial Plutarco (S. A.) Madrid*, 1931

الروحانية المسيحية . وان هذه المقابلة الدقيقة بين الروحانيتين التي قام بها المؤلف في كتابه الكبير تدفعنا الى ان نحلّ بالايجاب المشكل الادبي الذي يعرض للمطالع وهو : هل من وجود للروحانية في الدين الاسلامي ؟ وهل لهذه الروحانية ميزات خاصة تشابه ميزات الروحانية المسيحية ؟

يبدأ الكتاب بمقدمة قيّمة تظهر لنا موقف المؤلف من المشاكل الثلاثة المهمة التي تعترض كلّ باحث في الصوفية الاسلامية : وهي مشكل تاريخي ، ومشكل نفسي ، ومشكل لاهوتي .

اما المشكل التاريخي فيحلّه الكاتب على طريقة الانتخاب الفلسفي متناولاً افضل ما في النظريات المختلفة : قائلاً ان الاسلام ، في انتشاره ، تناول كلّ ما كان يظهر له من ثقافة روحية في الشعوب المغلوبة . ثم تمثّل كل ذلك ، وظهر بروحانية تستند اولاً واساساً الى الافكار الزهدية . الروحية المسيحية المتفرّعة عن آثار آباء الكنيسة الاقدمين وعن زهديات الرهبان والنساك . الا ان هذا الاصل المسيحي كان يشوبه احياناً بعض افكار اجنبية اثرت فيه بطريق المجاورة والعدوى ، فتناولها الاسلام بدوره دون تمحيص ولا انتباه لاصلها . وهكذا اتصفت صوفيته ، فوق اتصافها بروحانية النصارى ، ببعض مظاهر تستند فيها الى الافلاطونية المستحدثة الاسكندرية والى نظريات الاغنوستيين وما فيها من مزيج مضطرب ، والى المزدكية الفارسية ، بل الى البوذية الهندية ايضاً .

واما المشكل النفسي فيحلّه المؤلف جازماً بوجود شبه بين عناصر الزهد الصوفي الاسلامي والروحانية المسيحية ، شبه يتجاوز الكلام والصورة الى جوهر الحياة والعقيدة الروحية . وهو يصل الى هذه النتيجة بعد درس طويل يتفهّم فيه من جهة كتابات الصوفيين ، فارضاً طبعاً صحّة كلامهم واخلاصهم ، قائلاً انه « لا يجوز لرجل عاقل عادل ان ينفي هذا الاخلاص في جميع الحالات . » ويتبع فيه من جهة اخرى حياتهم فارضاً ايضاً « ان تلك الكمية الضخمة من الامثلة تتطلب من المؤرّخ المتجرّد ان يقرّ بانها ليست كلها فاسدة او مغلوطة . » وانه « اذا درسنا هذا العدد الكبير من الكرامات لا بدّ ان نعتبر بعضاً منها ، بل كثيراً منها ، على نصيب من الصحة التاريخية . »

واما المشكل الثالث وهو المشكل اللاهوتي فيحله المؤلف فارضاً من الممكن ان الله يمنح غير المؤمنين النعمة المبرّرة ، وبالتالي موهبة الكرامات والمعجزات. ولا يسهو باله عن النكرة المسيحية الجوهرية التي يراها أساً للحركة الزهدية الصوفية في الاسلام. ثم يختم بقوله « ان هذه الفرضية تكون برهاناً جلياً على قوّة النفوذ الفائق الطبيعة المتصنة بها النصرانية ، تلك القوة التي امكنها ان تتسلل ، على طريقة عجائبية ، من خلال مسامّ جسم الكنيسة فتنير بنهاء الوحي الالهي ديانةً كالاسلام تظهر لاول وهلة بعيدة كل البعد عن الايمان المسيحي ، ولكنها تحتوي على الشروط اللازمة ، وان ضئيلة ، للخلاص. »

وبعد هذه المقدمة الضرورية لفهم موقف المؤلف في كتابه الكبير ، ينتقل المطالع الى جسم الكتاب ، وهو مقسوم الى ثلاثة اقسام : حياة ابن العربي ، وتحليل عقيدته الزهدية - الصوفية ، ومنتخبات من اهمّ آثاره.

يترجم الكاتب لابن العربي على طريقة مطوّلة ، فيذكر معلومات كثيرة مفيدة دوّنها الصوفي عن نفسه ، واودعها مؤلفاته ولاسيما كتاب « الفتوحات ». فيستخرجها ويرتّبها مشيراً الى مصادره بكل دقة ، زائداً معلومات مقتضبة عمن ترجم للصوفي من الكتاب.

ولا نغالي اذا قلنا ان نواة الكتاب المهمة في القسم الثاني المختصّ بصوفية ابن العربي . حيث اظهر المؤلف مقدرته على تحليل طرائق صوفيي الاندلس من المسلمين وعلى تصنيف هذه الآراء المتشعبة المتباينة ، المتضاربة فرتّبها من جهة ، وقابل بينها وبين ما يشابهها من طرائق الروحانية المسيحية من جهة اخرى ، ولاسيما روحانية النساك الاقدمين ، وكبار روحانيي الاسبان في القرن السادس عشر.

اما المواد التي استعملها في تحليل صوفية ابن العربي فقد استخرجها خاصة من تآليف الصوفي القصيرة حيث نرى مذهبه في الزهد والتصوّف اجمع واظهر منه في كتابه الكبير المعروف « بالفتوحات ». وهذه اسماء التآليف التي درسها :

١ — كتاب تحفة السفرة الى حضرة البررة — طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ.

٢ — رسالة الامر المحكم المربوط فيما يلزم اهل طريق الله من الشروط ، طبعة القسطنطينية سنة ١٣١٥ هـ.

٣ – كتاب التدبيرات الالهية – طبعة نيبرغ Nyberg ، ليدن سنة ١٩١٩ .
٤ – رسالة في كنه ما لا بدّ للمريد منه – طبعة القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ .
٥ – كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلّة الاسرار والعلوم – طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .
٦ – رسالة الانوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الاسرار – طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ .

يحلّل الاستاذ اسين نظرية ابن العربي المستخرجة من هذه المؤلفات خصوصاً ، فيعرضها في اثني عشر فصلاً بكل ما تمتاز به من عقيدة اساسية في الزهد والتصوّف ، ومن اعمال مهمة يقوم بها الصوفي في محطّاته المختلفة ، ثم يقابل بينها وبين ما تفرضه الروحانية المسيحية من تعاليم واعمال ، وخصوصاً تلك الروحانية السابقة عصر الاسلام . على ان اهم الفصول ، في نظرنا ، الفصل السابع المختصّ بالموسيقى والغناء الديني ، وكذلك الفصل التاسع الذي يدرس حالات الصوفية ومقاماتها وما يأتيه اربابها من كرامات .

هذا وتجب الاشارة الى ان المؤلف يعتقد انه يعمل على لفت انظار الناس الى ابن العربي خاصة والى الصوفية الاسلامية عامّة ، فيرفعها في تقدير الباحثين ، بزعمه ان كلّ ما فيها من قيمة يأتي من العنصر المسيحي الكامن في اساس تلك الصوفية . قلنا : ومهما يكن من صحة هذه النظرية ومن تعرّضها للمناقشة اذا ما عُرضت على هذا المظهر من القطع والجزم ، فاننا نأمل ان العالم الاسلامي يعرف للمؤلف جهوده القيّمة .

ولا بدّ من القول ان الاستاذ اسين لا يخفي ما في شخصية ابن العربي من عامل مَرَضي ، وان كان لا يدقق كثيراً في ذكره . ثم انه لا يخفي كذلك ما في نظريته الصوفية من ميل لا يمكن السكوت عنه الى الحلول والتحوّل بالاتحاد .

بقي ان نذكر القسم الثالث وفيه يجمع الكاتب طائفة صالحة من اقوال ابن العربي المهمّة ، يترجمها الى اللغة الاسبانية بما عُهد فيه من مقدرة عرفها له الاستشراق العالمي من امد بعيد .

ونحن اليوم ابعد من ان نحلّ جميع المشاكل التي يخوض فيها هذا الكتاب القيّم . على ان ما نقوله بحقّ هو ان كتاب الاستاذ اسين جدير بان يحلّ مركزاً عالياً في فرعه ، فهو حجر مهمّ في بناء تاريخ الصوفية الاسلامية .